تطبيق شعرية دوستيوفسكي لميخائيل باختين

يعتبر دوستيوفسكي من أكبر المجديدين في الشكل الروائي ، فقد أوجد ما أطلق عليه باختين التعدد الصوتي، فقد جسده في رواياته مدخلا بذلك تقنية جديدة في كتابة الرواية الأوروبية كرس من خلالها نموذجا جديدا لعالم الرواية .

" إن دستويوفسكي شأنه شأن برومثيوس غوته لا يخلق عبيدا مسخت شخصياتهم (مثلما فعل زيوس) ، بل أناسا أحرارا مؤهلين للوقوف جنبا إلى جنب مع مبدعهم ، قادرين على ألا يتفقوا، بل حتى على أن يثورا في وجهه".[1]

كثرة الأصوات هي الخاصية الأساسية لروايات دوستيوفسكي " إن الأبطال الرئيسين عند دوستيوفسكي داخل وعي الفنان ليسوا مجرد موضوعات لكلمة الفنان بل إن لهم كلماتهم الشخصية ذات القيمة الدلالية الكاملة "[2].

و لهذا السبب فإن الكلمة التي ينطق بها البطل لا تستنفذ هنا أبدا بواسطة الأوصاف الاعتيادية و الوظائف ذات الدوافع العملية و الحياتية، إلا أنها تعتبر في الوقت نفسه تعبيرا عن الموقف الإيديولوجي الخاص بالمؤلف.إن وعي البطل يقدم هنا بوصفه وعيا غيريا ، وعيا آخر ، إلا أنه إلا أنه في الوقت نفسه غير محدد، و لا يجري التستر عليه ،كذلك فإنه لا يصبح مجرد موضوع بسيط لوعي المؤلف"[3].

البطل عند دوستيوفسكي يختلف عن البطل في الرواية التقليدية ، فهو مستقل بذاته له كلمة مستقلة لها وضعية استثنائية داخل بنية العمل الروائي .كما تختلف روايات دوستيوفسكي من الناحية التركيبية عن الرواية المونولوجية .فالمواقف عنده تصنعها الذوات و ليس الموضوعات كما كان في الرواية التقليدية .

---

[111]1-ميخائيل باختين شعرية دوستيوفسكي ، ترجمة جميل نصيف التركيبتي ، مراجعة حياة شراره ،دار توبقال للنشر الدار البيضاء ، المغرب ، ط1، 1986.ص10.

[2]-المرجع نفسه ، ص11.

[3]-المرجع نفسه ،ص11.

حطم دوستيوفسكي بنية شكل الرواية التقليدية ،فرواياته خليط متنوع على مستوى البناء .لقد ركز النقاد على الجانب الإيديولوجي في رواياته في ارتباطه بأبطاله ، و قد تجاهلت هذه الدراسات تعديدية أشكال الوعي عنده..و قد ركزت دراسات أخرى على الجانب الاجتماعي و السيكولوجي في إبداعاته و في الدراستين تم تجاهل المسائل الفنية . يذكر باختين أن منهجه سيأخذ بعين الاعتبار تعددية أشكال الوعي .

وجد باختين أن عالم "دوستيوفسكي" هو عالم شخصيات إلى أبعد الحدود إما متعارضة أو متناقضة ، " إنه يقوم يتناول و تصوير أي فكرة بوصفها تجسيدا لموقف شخصية ما ، و لهذا السبب فهي في حدود أشكال الوعي المعنية يكون الخط الديالكتيكي مجرد لحظة تتشابك بقوة مع اللحظات الأخرى للوعي الملموس و المتكامل ، و من خلال هذا الوعي الملموس و المجسد في صوت حي لإنسان متكامل يرتبط الخط المنطقي بوحدة الحادثة التي يجري تصويرها .و الفكرة التي تنجذب إلى الحاثة تصبح نفسها جاذبية، و تكتسب ذلك الطابع الخاص للفكرة –الإحساس، و الفكرة–القوة في العالم الإبداعي لدستيوفسكي "[4].

يؤكد في روايته على الأنا الغيرة التي تصبح ذات فاعلة ؛ بمعنى أنا هنا ،و هي تجسد الوعي المثالي لشخصياته التي تتحول إلى واقع حقيقي ، و ذلك على الرغم من تعرضهم للهزيمة هذه الشخصيات التي تتميز بحريتها الداخلية، و باستقلالها عن العالم الخارجي .و لقد أهملت الدراسات " طرائق رؤياها الفنية و تصويرها في ظروف الرواية –هذا التركيب الفني المحدد "[5].

" إن خصوصية دوستيوفسكي لا تكمن في كونه أعلن مونولوجيا عن قيمة الشخصية، بل في كونه استطاع أن يراها فنيا و موضوعيا ، و أن يعرضها أيضا بوصفها شخصية أخرى ،شخصية غيرية

[4]-المرجع نفسه ،ص15.
[5]-المرجع نفسه ،ص18.

(تخص الغير) دون أن يسبغ عليها جوا من الغنائية ، و دون أن يمزج صوته معها ، كذلك دون أن ينحدر بها إلى مستوى الواقع النفساني المحدد "[6].

و هذه الخصوصية هي التي تميزه عن الرومانتكين الذي يركزون على الوعي و الإيديولوجيا بوصفها تعبير عن حماسة المؤلف ،و أن البطل منفذ لها أو مجرد موضوع .إن استقلالية البطل أو الشخصيات عند لا تدخل في خطة المؤلف ، و ذلك تمهيدا لحرية نسبية لا تخرق صرامة البناء الفني .

خرق الوحدة العضوية هو أحد خصائص الكتابة عنده ، و قد اكتشفها جروسمان ، و قد كانت الوحدة و التجانس من أهم خصائص الرواية التقليدية ، بمعنى المطابقة بين المادة و معالجتها ، و قد خرق الروائي ذلك عندما صهر و دمج العناصر المتعارضة، يقول باختين "إن هذه العناصر لم تقدم من خلال ذهنية واحدة بل من خلال عدد من الذهنيات الكاملة القيمة ، و ليست المادة هي التي تندمج مباشرة بل هذه العوالم هذه الإشكال المتعددة من الوعي بما فيها من ذهنيات هي التي تندمج في وحدة سامية على حد تعبير البعض من الدرجة الثانية في وحدة الرواية المتعددة الأصوات "[7].

تظهر التعددية من خلال الحوار ، و لكن ليس الحوار الدراماتيكي ، فهو يلعب دورا ثانويا في روايات دوستيوفسكي ، هناك نزعة حوارية لما هو أخير و متكامل تبنى " بوصفها تأثيرا متبادل لعدد من أشكال الوعي "[8].

يظهر عدم تجانس المادة ، و تعددية المواقف الإيديولوجية من خلال تصادم البرامج الاجتماعية و الثقافية و الإيديولوجية التي تعبر عن المجتمع الرأسمالي الذي تحققت فيه الرواية متعددة الأصوات التي حملت الجوهر المتناقض للحياة الاجتماعية و الذي ظهر بحدة في العصر الرأسمالي الذي ظهر بطريقة مفجعة في روسيا .

---

[6]-المرجع نفسه ، ص18.
[7]-المرجع نفسه ، ص24.
[8]-المرجع نفسه ،ص26.

خرق دوستيوفسكي وحدة العالم التي تميزت بها الرواية المونولوجية. و يوضح باختين ذلك بمقارنة مجازية بين رواياته و تعددية الأصوات في الموسيقى " و كما يحدث في الموسيقى فإن المشكلات الجديدة برزت عندما جرى تجاوز حدود الصوت الواحد"[9].

ما تتميز به روايات دوستيوفسكي هي الفكرة التي ليست هي أساس التصوير ، بل هي مادة التصوير " إنها تبدو من وجهة نظر الأبطال وحدهم مبدأ رؤيا العالم و فهمه "[10].

أهم خاصية في إبداع دوستيوفسكي هي التعايش و التأثير المتبادل .حاول دوستوفسكي فهم المتناقضات الاجتماعية في زمن واحد ، و قدمها على شكل مقابلة دراماتيكية .كما حاول أن يرى ظواهر الواقع بوصفها (أثرا من آثار الماضي، و قمة للحاضر ، و مؤشرا للمستقبل) ، و تجري هذه الظواهر في المكان لا في الزمان ، و هذا يظهر من خلال الإبطال المزدوجين ؛ بمعنى أنه "يسعى لأن يجعل من كل تناقض داخل الإنسان الواحد إنسانين اثنين، و لذلك من أجل أن يصنع الطابع الدراماتيكي على هذا التناقض ، و أن يفسره بصورة اتساعية "[11].

التعايش معناه الوجود جنبا إلى جنب، أو وجود الواحد في وجه الآخر في لحظة زمنية واحدة، و هدفه هو خرق الزمن ذاته و تذليله ، و ذلك حتى يميز ما هو جوهري مما هو غير جوهري ، و كأن كل شيء يجري في آن ، و كل الأشياء تتعايش، لذلك فأبطاله لا ماضي لهم إلا ما يدخل في حاضرهم " داخل كل صوت استطاع أن يسمع صوتين متجادلين يسمع و يفهم كل الأصوات مرة واحدة و في آن واحد "[12].

رفض باختين مصطلح الرواية الإيديولوجية، لأنه لا يلائم إبداع دوستيوفسكي هو خالق رواية تعددية الأصوات عصره شهد الرأسمالية في بداياتها عصره عبر عن تناقضات .

---

[9]-المرجع نفسه ،ص32.
[10]-المرجع نفسه ،ص36.
[11]-المرجع نفسه ،ص42.
[12]-المرجع نفسه ،ص44.

"فالأشكال الجديدة للرؤيا الفنية تتكون ببطء ،و عبر قرون أما العصر فيكتفي بتهيئة الظروف المثلى لإتمام عملية نضج الشكل الجديد و تحقيقه".[13]

[13]-المرجع نفسه ،53.